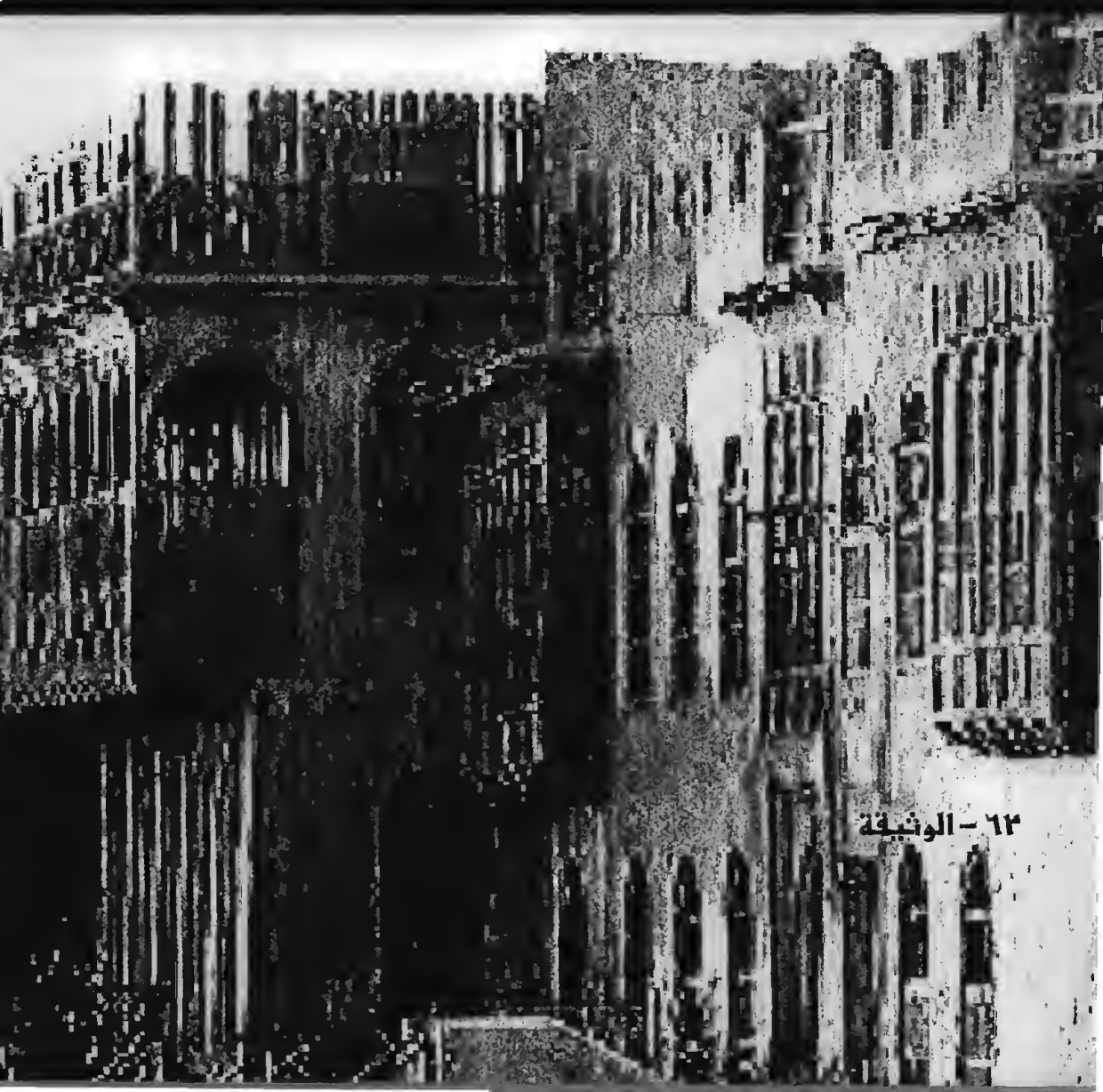


# التحول الاجتماعي للاجتماعية في

بقلم الدكتور عبد الحكيم غنتاب الكعبي



١٢ - الوثيقة

# المدرسة العربية للإسلامية

في الفرق الأولى / الرابحة / السابعة / الثمانية

## البصرة أنموذجاً

تمثل المدينة وتطوراتها الاجتماعية والاقتصادية والفكرية، الوحدة الحية والجزء الفعال من حركة التقدم الحضاري الذي يجتمع من المجتمعات وقد انقسم المؤرخون والباحثون الاجتماعيون في حقل الدراسات التمدنية في توجهاتهم ونظرياتهم إلى اتجاهين بارزين : الأول : اتجاه يضع الجوانب الوصفية للمدن والظروف الخارجية كأساس لدراسة العيانات ، والتركيز وفق هذا الاتجاه يكون على التنظيمات الاجتماعية كمن محاولة تتبع الامتدادات التاريخية لتلك المدن ، ودون التوجه إلى داخل المدينة لتشخيص الصعوبات والأزمات التي تواجهها .

الثاني : اتجاه يعرف بالدراسات البنيوية للتمدن، وهو اتجاه يأخذ بنظر الاعتبار مجمل العوامل المحيطية والبيئية للمدينة، مع التركيز على العوامل الاجتماعية والاقتصادية والتعمق في دراسة المتغيرات والتوترات التي تشهدها المدن وربطها بتلك العوامل وتطورها<sup>(١)</sup>.

لقد احتلت المدينة العربية الإسلامية في حضارة العصر الإسلامي الوسيط مكانة ريادية متميزة، حتى صارت من أهم مراكز القوة في ذلك العصر، ولا نكون مغالين إذا قلنا : أن نشوء شبكة من المدن الجديدة في تلك الحقبة هو الذي منح العالم الإسلامي الجديد هيكله الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وأن التاريخ العربي الإسلامي خلال قرونه الثلاثة الأولى كان تاريخ مدن وأمصار كالبصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقيروان . ويعلق موريس لومبارد على ذلك بقوله : "لقد كانت أرجحية المدينة في العالم الإسلامي بين القرنين الثامن والحادي عشر"، - الثاني والخامس الهجريين - هي الظاهرة العظمى في تلك الفترة، فبين سمرقند وقرطبة كانت الحضارة الإسلامية حضارة متماسكة بشكل مدهش، مع حركة واسعة من انتقال الناس والبضائع والأفكار، حضارة توفيقية أو تركيبية فرضت نفسها فوق أرضية إقليمية ريفية أو بدوية<sup>(٢)</sup> . ويقول كلود كاهن في إشارة إلى ظهور المدن الإسلامية الأولى كالبصرة والكوفة : "إن التوسع النسبي في العمران داخل المدن الإسلامية، قد بهر المؤرخين فدفعهم أحياناً إلى المبالغة والإسراف . والحق أن الفتوحات العربية - حيثما لم توجد حركة عمران سابقة مزدهرة - قد صاحبها حركة إنشاء مدن جديدة كانت في بادئ أمرها معسكرات بدائية ثم سرعان ما تحولت إلى حواضر ناشطة"<sup>(٣)</sup>.

إن الغرض الذي نرمي إليه من خلال هذا البحث هو محاولة الكشف عن مراحل التحولات الاجتماعية وظروف الانتقال من البداوة إلى الحضارة في واحدة من المدن الإسلامية المهمة، بل هي أول مدينة عربية تعيش تجربة

التمدن والاستقرار خارج شبه جزيرة العرب، في مرحلة مفصلية من التاريخ الإنساني هي القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي الذي شهد ظهور الإسلام واتساع دولته من حدود الصين حتى أواسط أوروبا .

## ظهور البصرة :

من المعروف أن البصرة نشأت استجابة لضرورات عسكرية بحتة تطلبتها عملية فتح العراق في العقد الثاني من القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، واحتفظت بصفاتها تلك على مدى قرن من الزمان تقريباً، إلا أن نهوض البصرة السريع، وثوراتها بعد فقر، وتوسعها السريع وتضاعف عدد سكانها على الرغم من كل الظروف العصيبة والأزمات السياسية والاجتماعية التي مرت بها، يطرح على الباحث الإشكالية الآتية :

❖ ما الذي تهيأ لتلك النواة العسكرية المغلفة بجدار سميك من البداوة، والمحاطة بظروف بيئية غير ملائمة، بأن تتوسع بهذا الحجم، وبهذه السرعة ومن ثم تشهد تحولات اجتماعية كبيرة على طريق التمدن والاستقرار خلال قرن واحد بعد تأسيسها ؟

يكاد يتفق معظم الباحثين والمؤرخين من المهتمين بالدراسات التمدينية بأن ظهور البصرة كان ظهوراً عفوياً، فيقول عنها المستشرق الإيطالي كايثاني " أن البصرة هي المدينة التي تولدت من ذاتها، ولضرورة في نفسها"<sup>(٤)</sup>، ويصنفها موريس لومبارد بأنها كانت واحدة من مدن الفطريات<sup>(٥)</sup> [الفطرية] التي نشأت وتمت سريعاً على عاتق أعداد من العرب المهاجرين إليها من شبه الجزيرة العربية ومن معتنقي الإسلام الجدد من الموالي، وأشخاص من أهل الكتاب متمتعين بحماية الدولة - أهل الذمة - وبعد ثلاثين عاماً فقط من تأسيسها

أصبحت تضم أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ نسمة<sup>(٧)</sup>، بينما يعد الأستاذ هشام جعيط ظهور البصرة ونموها السريع ظاهرة مازالت غامضة، فهي ظهرت بصفة عفوية نسبياً، متواضعة في الأصل، ولم تؤسس بفعل عمل منظم ومخطط له<sup>(٨)</sup>، بل كانت ثمرة لعفوية لم يجر السيطرة عليها تماماً، وبفضل تلك العفوية حصلت البصرة على قدرة كبيرة على التطور خلافاً للكوفة - مثلاً - التي بقيت حبيسة نشأتها المنظمة جداً، والمرتبطة كثيراً بالحرب وبمركز الحكم<sup>(٩)</sup>. ولا بد من التساؤل والبحث عن تلك القوى الكامنة وراء ذلك النمو السريع والمذهل لمدينة مثل البصرة، وعن ماهية العوامل التي أفرزته، سيما وأن تطور المدينة لم يمر بسلام، ودون عوائق وصعوبات جمة، من أيامها الأولى، فضلاً عن رداءة ظروفها البيئية - الماء والتربة والمناخ - وفقر المدينة وقلة مواردها خاصة في سنواتها الأولى<sup>(٩)</sup>. فما هي ظروف تأسيس البصرة وما هي ملامح التحولات الاجتماعية فيها ؟

إن الشروط التي شدد عليها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه عند إعطائه الإذن لعتبة بن غزوان [أمير الجيش ومؤسس البصرة] بالإقامة الدائمة واختيار المكان، تؤكد المبررات العسكرية لظهور المدينة في مرحلتها التأسيسية، فقد اشترط الخليفة أن تكون الطرق وخطوط الاتصال بين الموضع المنتخب للمدينة ومركز الخلافة (في الحجاز) سهلة وميسورة لضمان عملية وصول الإمدادات والاتصالات الأخرى، فضلاً عن مطابقته لسياسة العرب العسكرية آنذاك في مسألة الانسحاب إلى الصحراء عندما يواجه المقاتلون العرب أية مستجدات أو صعوبات عسكرية تدفعهم إلى الانسحاب الاضطراري، وكان في مقدمة تلك الشروط أن يكون موضع المدينة الجديد على طرف الصحراء، ولا تفصله عن المدينة [العاصمة] أية حواجز مائية كالأنهار وغيرها<sup>(١٠)</sup>، وقد تجسدت هذه الشروط بوضوح في اتخاذ كل من البصرة والكوفة<sup>(١١)</sup>. وربما كان في ذلك، أيضاً، حساباً للعوامل النفسية بالنسبة للمقاتلين العرب، بحيث تتوافر لهم

بيئة طبيعية يمكنهم التكيف معها وتكون مقاربة إلى حد ما لظروف حياتهم وبيئتهم السابقة<sup>(١٢)</sup>، فضلاً عن ضمان عدم تعرض الجند للتطويق والعزل من قبل قوات العدو، وليكون مكاناً يضم المقاتلين فحسب، لأن المقاتلين من عتبة أتوا البصرة دون نسائهم، فيذكر ياقوت أنه كان بين جماعة عتبة التي بلغ عددها ستمائة، ست نساء فقط<sup>(١٣)</sup>، وكانت البداية متواضعة لهذا المخيم الذي تكون من الخيام والقباب والفساطيط ولم يكن فيه أي بناء<sup>(١٤)</sup> وسنجد أن الصفة العسكرية للمدينة ظلت ترافق تطورها لقرن من الزمان بعد تمصيرها .

## **سكان البصرة بعد الفتح :**

### **العرب**

تم تحديد سكن المقاتلين العرب الذين استوطنوا البصرة منذ تأسيسها وفقاً للنظام القبلي، وذلك مراعاة لما كانت عليه طبيعة النظم السائدة في شبه جزيرة العرب والتي كانت قائمة على أساس القبيلة، فقسمت البصرة إلى خطط سكنت كلاً منها قبيلة وسميت كل خطة باسم القبيلة التي سكنتها، وقد احتفظت هذه الخطط بأسمائها لمدة طويلة، ويبدو أنه كان هناك نوع من التوازن أو المطابقة بين الخطة والقبيلة في بداية التأسيس، غير أن هذا التوازن اختل بمرور السنين بسبب التزايد المتسارع لعدد السكان نتيجة الهجرة الوافدة، وينسب إلى والي زياد بن أبيه (٤٥-٥٣ هـ / ٦٦٥-٦٧٣ م)<sup>(١٥)</sup> التنظيمات السكانية الكبرى في المدينة، فهو الذي جعل البصرة خمسة أخماس يضم كل منها عدداً من العشائر، وهذه الخماس هي :

- **أهل العالية** : وهم أهل الحجاز، من الأسر الإدارية التي نزحت إلى البصرة قبل سنة ٤٠ هـ، وكان بعضهم من أقدم مقاتلة البصرة، وبرز فيهم

رجال كانت لهم مكانة متميزة في المدينة، وخاصة الثقفين الذين كانت تربطهم صلة نسب بأبرز ولاية البصرة في القرن الأول (زياد والحجاج) وقد ساعدت هذه الصلة على توطيد مكانتهم<sup>(١٦)</sup>.

- **الأزد** : كانت هذه القبائل قد سيطرت منذ زمن بعيد في البصرة ومن هؤلاء أزد عمان، وقد طبعوا البصرة بطابعهم الخاص<sup>(١٧)</sup>، إذ اشتهر الأزد بخبرتهم الواسعة في ميدان التجارة والملاحة.

- **بكر بن وائل** : وهم مجموعة ربعية (من ربعية) نشيطة، كانوا حراساً لطريق الحج من البصرة إلى مكة، كما كانوا يقومون بحراسة الطرق والقوافل التجارية من شبه جزيرة العرب حتى خراسان وبلاد الترك<sup>(١٨)</sup>.

- **قميم** : إحدى القبائل الكبرى التي هاجرت إلى البصرة منذ بداية تأسيسها وظهر منها عدد من الرجال الذين شغلوا مناصب إدارية مهمة، وهي تلي الأزد من حيث العدد، ولكنها من الناحية الاجتماعية منقسمة انقساماً عميقاً بين دارم وحنظلة، وقبيلة دارم، التي منها الأحنف بن قيس الشخصية البصرية المعروفة، ذات ميل أرستقراطي اتخذت من الفرس الأساورة موالى، أما حنظلة فقد اتخذت أتباعها من الطبقات الدنيا كالسيابجة والزط<sup>(١٩)</sup>.

- **عبد القيس** : وهي أقل القبائل عدداً، والمعلومات عن خططها وعشائرها في البصرة قليلة جداً<sup>(٢٠)</sup>، ويبدو أن أفراد هذه القبيلة كانوا يتدخلون في السكن مع غيرهم من القبائل، وهذه الجماعة الربعية كانت في الأصل جماعة بحرية جاءت من البحرين، وقد تم لها السيطرة على الخليج العربي<sup>(٢١)</sup> بحكم خبرتها الواسعة في ميدان الملاحة والتجارة البحرية.

واستناداً إلى أصول هذه القبائل وخلفياتها البيئية والثقافية يمكننا القول أنه وجد في البصرة مجتمع عربي ينتمي إلى عالمين أو نمطين حضاريين مختلفين نسبياً هما :

**الأول :** هو عالم سكان المدن والمناطق الأقل تشبعاً بروح البداوة، وقد شكل هؤلاء القوة الفاعلة والمؤثرة في حياة المدينة، والتحكم بمجريات الأحداث فيها، وتمثل عناصر هذا العالم :

\* **العشائر** التي كانت ديارها في الحجاز (أهل العالية)، من سكان المدينة (العاصمة)، ومن أهل ثقيف والطائف، ومنهم كانت الجماعة السياسية الحاكمة والقادة والموظفون وأصحاب المناصب الإدارية في البصرة، وكانت هذه المجاميع على الرغم من قلة عددها تمسك بزمام الأمور، ومنهم كان الولاة الذين لعبوا الدور البارز على صعيد تمصير المدينة، وظهور التحولات الكبرى في المراحل الأولى من تاريخها .

\* **العشائر** التي كانت ديارها في الأطراف الشرقية من شبه الجزيرة وسواحل الخليج العربي (بكر، عبد القيس، حنيفة، أزد عمان)، وكان أغلب هؤلاء يمارسون الزراعة والملاحة، ومنهم من القبائل التي ترجع أصولها إلى اليمن، ورثة الحضارات المتكاملة التي عرفت نظم الدولة، ونظم الري المتطورة، والنشاط التجاري الواسع براً وبحراً، وقد أسهم استقرار هذه المجموعات في البصرة في نمو النشاط التجاري والملاحي مع بلدان المحيط الهندي والشرق الأقصى .

\* **أما النمط الثقافي الثاني** في المدينة فقد كان متمثلاً في القبائل التي جاءت من أواسط نجد (تميم وعامر وأسد) فضلاً عن العشائر الأخرى والحلفاء، وهم قبائل رحل، رعاة وبدو من الطراز الأول، وقد كانت



لهم مساهمة فعالة في الحوادث الكبيرة في البصرة، كما شغلت المدينة ولعقود طويلة بمشاكلهم ونزاعاتهم الداخلية .

**\* العناصر غير العربية :** إن رغبة العرب في الحفاظ على شخصيتهم بابتعادهم عن الاختلاط بالشعوب التي أخضعوها لم تكن دائماً ممكنة التحقق على أرض الواقع، خاصة في مدينة كالبصرة، فقد تأكد للمستوطنين الجدد من العرب ضرورة الاستعانة بكل أطراف الحرفيين والمهنيين الذين لا يمكن أن تستقيم حياة المدينة بدونهم وهي تعيش مرحلة النمو والتطور السريع، فقد كانت هناك حاجة ماسة إلى البنائين والعمال الماهرين والفنيين لشق القنوات وتشديد الجسور، وكان هناك توسع مستمر في استصلاح الأرض، وفي امتلاك الأراضي الزراعية حول البصرة<sup>(٢٢)</sup> وفي منح القطاعات لرجال الدولة البارزين<sup>(٢٣)</sup>، إن ذلك أوجد حاجة كبيرة إلى العمال الزراعيين، وليس هناك من سبيل لتوفير هذه الأعداد الكبيرة منهم إلا عن طريق تشجيع هجرة هؤلاء من المناطق المجاورة إلى البصرة . وخلال سني الفتوح الإسلامية في المشرق كان سيل أسرى الحرب والعبيد لا ينقطع عن المدينة، كما كان ميدان النشاط التجاري المتنامي في المدينة يفتح مجالات واسعة لكل ألوان المهارات والمهن، هذا إضافة إلى أن العرب ورثوا الجهاز الإداري الساساني بموظفيه وعماله الذين كان أغلبهم من الفرس . إن كل هؤلاء من عناصر فارسية مختلفة الأسماء والأصول، وهنود من عالم المحيط الهندي الواسع، وزنوج وغيرهم توافدوا على البصرة ومن جهات مختلفة وأقاموا فيها لأسباب اقتصادية، ومع نمو وازدهار البصرة كانت أعداد هذه الجماعات تزداد، وصاروا يشتركون اشتراكاً فعلياً في حياة البصرة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، حتي صارت كثرتهم مصدر قلق للسلطة خاصة في العصر الأموي الذي كان متشدداً في هذا الجانب القومي بالذات، فيذكر أن معاوية بن أبي سفيان دعا الأحنف بن قيس وسمرة بن جندب و كليهما من البصرة ليقول لهما: "إنني رأيت هذه الحمراء قد كثرت،

وأراها قد قطعت على السلف وكأنني أنظر إلى وثبة منهم على العرب والسلطان . . " وحدثهما أنه ينوي قتل نصفهم، تاركاً نصفهم الآخر للقيام على الأسواق وعمارة الطرق، وقد وافق سمرة على خطة معاوية بقتلهم، أما الأحنف بن قيس فقد دافع عنهم وابتغى لهم السلامة، وقد أخذ معاوية برأي الأحنف، ويبدو أنه اكتفى بنقل بعضهم إلى مناطق أخرى<sup>(٢٤)</sup>، من جانب آخر ضمنت كثرة هؤلاء في المدينة استمرارية دوران عجلة الحياة الاقتصادية بكل فروعها وأنشطتها دون توقف حتى في أكثر الأوقات اضطراباً، حين كانت القبائل مشغولة في الحروب والفتن والمشاكل الداخلية<sup>(٢٥)</sup> .

لقد استفادت هذه المجموعات المختلفة من فرص الحماية التي توفرت لها في مرحلة مبكرة من تأسيس المدينة، فوضعوا أنفسهم تحت حماية أفراد أو عشائر، متمتعين بالمنافع التي يوفرها لهم الولاء للسيد أو للعشيرة . ففي مجتمع مثل مجتمع البصرة قائم على العصبية والتحزب، حيث الغلبة والسيادة للعرب، كان نظام الولاء أنجع السبل لتحقيق ما يصبو إليه غير العربي . وكان اتصال هؤلاء الأجانب بالعرب عن طريق الولاء يتفاوت من حيث الزمن بين الجدة والقدم<sup>(٢٦)</sup>، كما يتفاوت في طبيعة العلاقة بين السيد والمولى، فقد ظهر في البصرة، فضلاً عن موالي العتاقة وأسرى الحرب، نوع آخر من الموالي الأعاجم الذين سكنوا البصرة بإرادتهم وارتبطوا بصفة الولاء بإحدى العشائر أو بأحد الأفراد باختيارهم<sup>(٢٧)</sup> .

وبالإضافة إلى الخدم والرقيق والموالي من الذين اصطحبتهم القبائل العربية معها عندما بدأت تستقر في البصرة، وكانوا من مختلف الأصول والناشئ، استوطنت البصرة عناصر أجنبية من جنسيات مختلفة يأتي في مقدمتها بعض من القوات الساسانية التي استسلمت للجيش العربي في جبهة البصرة، فقد أسلم في ولاية أبي موسى الأشعري حوالي أربعة آلاف من

الأساورة، وكان هؤلاء يشكلون فرقة عسكرية في الجيش الساساني كانت تحارب في الأهواز، وقد أبرم أبو موسى معهم اتفاقاً منحهم فيه نفس حقوق العرب، فأعطيت لهم الخطط، وجعل لهم العطاء والأرزاق، على أن يقاتلوا إلى جانب العرب، وقد حافظوا على وحدتهم حتى دخلوا في تحالف مع قبيلة سعد من تميم<sup>(٢٨)</sup>، وهناك من اعتبر أن أصل هؤلاء الأساورة من السند<sup>(٢٩)</sup>. وقد ازداد عددهم بعدئذ بمن انضم إليهم من الجنود الساسانيين الهاريين<sup>(٣٠)</sup>.

وقد تحدثت المصادر عن وجود فئة أجنبية أخرى مهمة في البصرة وهم السيابجة الذين أوكلت إليهم في بعض المراحل مهمات إدارية ومهنية، فقد كلفوا بحراسة بيت المال والسجن ودار الإمارة، ولخبرتهم في مجال البحر والملاحة أخذوا يخدمون بعدئذ على ظهر سفن الأسطول الإسلامي في الخليج العربي<sup>(٣١)</sup> وهناك من اعتبرهم من أصل فارسي<sup>(٣٢)</sup> والمرجح أنهم من جزر المحيط الهندي، وتحديدًا من جزيرة الزابج (سومطرة) وهو ما ذهب إليه الأب أنستاس الكرمللي<sup>(٣٣)</sup> هاجروا إلى الهند، ثم إلى العراق والخليج العربي حيث ظهروا قبل الإسلام، ثم استخدمهم الساسانيون كقوة لحماية السفن من غارات القراصنة<sup>(٣٤)</sup> وقد جرى تجنيدهم بعد ذلك في الجيش الساساني وبعد انتصار العرب وتأسيس البصرة، استقر هؤلاء فيها وتحالفوا مع بني حنظلة من تميم<sup>(٣٥)</sup>.

وهناك قوة أجنبية أخرى هم الزط الذين ترجع أصولهم إلى بلاد السند وكانوا قد استقروا على سواحل الخليج العربي قبل الإسلام، وبعد الفتح دخلوا الإسلام وأسكنهم أبو موسى الأشعري البصرة، وتحالفوا مع بني حنظلة من تميم أيضاً<sup>(٣٦)</sup> وكان الحجاج بن يوسف الثقفي قد جلب أعداداً كبيرة أخرى منهم من بلاد السند ومعهم دوابهم وأسكنهم منطقة البطيحة لملاءمة هذه البيئة

لظروف حياتهم السابقة<sup>(٣٧)</sup> فغلبوا على البطيحة وتكاثروا فيها . [وقد قاموا بعدئذ بحركة تمرد عدائية عنيفة ضد المجتمع والدولة مطلع القرن الثالث الهجري والتي أقلقت مدينة البصرة ونشرت الذعر والخراب فيها حتى تم القضاء عليها سنة ٢٢٠ للهجرة<sup>(٣٨)</sup> وكان عدد الزط آنذاك ٢٧,٠٠٠ ، منهم ١٢,٠٠٠ يحملون السلاح<sup>(٣٩)</sup> وقد جرى نقلهم بعد ذلك وتفريقهم إلى جهات مختلفة] .

أما البخارية فهم جماعة من أواسط آسيا جلبهم عبيد الله بن زياد وأسكنهم البصرة وأجرى لهم العطاء والأرزاق<sup>(٤٠)</sup> وكان عددهم ٤,٠٠٠ وشكلوا وحدة جنسية متميزة في المدينة يسكنون في حي واحد معروف يسمى سكة البخارية<sup>(٤١)</sup> وهناك احتمال كبير أن هؤلاء اختلطوا منذ القرن الثاني للهجرة بالحياة العامة في المدينة وامتزجوا بالألوف من الموالي الإيرانيين الذين نزلوا البصرة في أوقات مختلفة<sup>(٤٢)</sup> .

وبجانب هذه العناصر وجدت في البصرة أعداد كبيرة جداً من الزوج الذين جلبوا كرقيق في أزمنة غير معروفة من سواحل أفريقيا الشرقية، ويبدو أن ذلك كان مرتبطاً بتوسع التجارة الإسلامية الكبرى في المحيط الهندي . وكان يتم الحصول على هؤلاء العبيد من حملات غزو أو يشترون مقابل سلع تافهة ثم ينقلون إلى سقطرة أو عدن وهما نقطتا تمركز هذه التجارة، ينقلون بعدها إما إلى مصر عن طريق البحر الأحمر، أو إلى البصرة عن طريق الخليج العربي<sup>(٤٣)</sup> وقد استخدم هؤلاء بكثرة في كسح السباح، وفي حملات استصلاح الأراضي في البصرة، تلك الأرض المعروفة بملحياتها العالية، وكان هؤلاء يعملون عادة على شكل مجموعات كبيرة تتراوح بين الألف والخمسة آلاف وربما أكثر . [ وفي منتصف القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي كان وجود هؤلاء العبيد بأعداد

هائلة في البصرة قد أدى إلى حركة مدمرة دامت خمسة عشر عاماً (٢٥٥-٢٧٠هـ/٨٨٣-٨٦٨م)<sup>(٤٤)</sup>، عرفت بـ (حركة أو ثورة الزنج) التي أغرقت المدينة في الفوضى والدمار على مدى أربعة عشر عاماً، ونشرت الرعب في النفوس وقوضت صرح هذه المدينة المزدهرة .

## **أزمات وتحولات :**

إن ظهور الأمصار الإسلامية الأولى وبخاصة الكوفة والبصرة، ارتبط بمفهوم مركزي في الإسلام هو مفهوم الهجرة، ذلك المفهوم الذي اتسع معناه - أو هكذا أريد له - منذ ذلك الحدث الذي كان سبباً في تحرير الإسلام من ضغط قريش، وانتشاره على مدى أرحب وأكثر أمناً، ونعني به هجرة الرسول محمد ﷺ وأصحابه من مكة إلى يثرب . لقد كانت هجرة المسلمين الأوائل والتحاقهم بالرسول في حينها تعبيراً عن أقصى درجات الإيمان والاستعداد الكامل للجهاد والانسلاخ عن واقع قديم رفضه الدين الجديد، فاستحق هؤلاء المهاجرون مكانة خاصة في الإسلام، ثم اتخذ مفهوم الهجرة بعدئذٍ بعداً معنوياً، وصار شرفاً يحمله كل مسلم مستعد للتضحية حتى وإن لم يهاجر .

ومع انطلاق حركة الفتوح الإسلامية الكبرى في خلافة عمر وجد الإسلام نفسه من جديد مرتبطاً بالهجرة، وعاد إلى ذلك المفهوم فوسع إطاره، وأصبحت الهجرة باتجاه العراق والشام لنشر رسالة السماء ومحاربة الكفر، وكان امتياز هؤلاء المهاجرين (الديوي) هو تمتعهم بالعتاء دون غيرهم من المسلمين - باستثناء النخبة في المدينة - كما كان مقدار هذا العطاء يتسلسل حسب أسبقية الالتحاق بهذه المناطق<sup>(٤٥)</sup>، لذلك سارعت أعداد هائلة من عرب شبه الجزيرة العربية إلى الشام والعراق لتبدأ أكبر عملية هجرة هادفة، ومنظمة (ومسلحة) في

التاريخ، غيرت وجه العالم آنذاك فمحت إحدى أكبر إمبراطوريتين من الوجود وإلى الأبد، وحجمت الأخرى، ونشرت الإسلام في الأصقاع البعيدة خلال فترة زمنية وجيزة، وكان من أبرز وأهم نتائجها الأخرى ظهور الكوفة والبصرة كأول مدن إسلامية خارج شبه جزيرة العرب، ولم تكن هاتان المدينتان مجرد محطات استقرار بشري وعمراني فقط بل لعبتا أدواراً سياسية واقتصادية وعسكرية وإدارية هامة جداً إلى درجة يمكن القول معها بأن التاريخ العربي الإسلامي خلال القرن الأول ومطلع القرن الثاني للهجرة يكاد يكون هو تاريخ البصرة والكوفة وأحداثهما .

إن هذه القبائل التي دفع بها الإسلام إلى خارج الجزيرة العربية، شكلت الأغلبية المطلقة من سكان البصرة، وهم العرب الفاتحون الذين أصبحوا سادة المجتمع المتمتعين بكل الامتيازات . وكان لطبيعة التركيب السكاني في المدينة أثره الكبير على حياتها القادمة، وظروفها ومراحل تطورها، فمعظم من استقروا في المدينة كانوا من قبائل شرق جزيرة العرب مثل تميم وبكر وعبد القيس ممن ثاروا على سلطة الدولة المركزية بعد وفاة الرسول ﷺ .

وهذا يفسر استمرار الكثير منهم في تحدي الجهود التي بذلت لتخفيف حدة التنافس القبلي داخل المدينة، وقد ظل ذلك الاحتكاك القبلي يشكل خطراً كامناً يهدد حياة المدينة خاصة في السنوات الأولى من تأسيسها<sup>(٤٦)</sup>، وهي تعيش تلك التجربة المثيرة على طريق الاستقرار والتمدن، إلا أن تأثير الإسلام على العلاقات بين القبائل في هذه المرحلة كان فعالاً وبعيد المدى، وقد تمثل ذلك التأثير في النواحي التالية :

\* كانت حروب الردة فرصة لدولة المدينة لتأكيد سلطانها على القبائل المتمردة وإخضاعها لنفوذها المركزي، فخلقت بذلك وحدة — وإن كانت شكلية

ومؤقتة - بين هذه القبائل، كانت الخطوة الأولى على طريق التحول الاجتماعي .

\* على الرغم من أن معظم أفراد هذه القبائل لم يكونوا ملمين إلاماً دقيقاً بتفاصيل دينهم الجديد، وكان تنظيم الجيش يقوم على أساس التشكيل القبلي، إلا أن انخراطهم في جيش واحد يحارب باسم الإسلام، ويخضع لأوامر مركزية متمثلة في سلطة الخليفة أو من ينوب عنه من القادة العسكريين كان في حد ذاته مفهوماً ثورياً جديداً ترك بصماته على علاقاتهم الاجتماعية الجديدة .

\* كان لمشاعر الحماسة القوية التي استقطبت عواطف العرب، ودفعتهم لدك حصون الإمبراطورية الساسانية، مفعولها الكبير في حمل هذه القبائل على تناسي خلافاتها لبعض الوقت .

\* إن كل قبيلة من هذه القبائل أصبحت جزءاً يحارب من أجل أهداف وغايات شمولية عامة فيها بالنتيجة مصلحة الجماعة الإسلامية بعد أن كانت في الماضي القريب تحارب لأهداف محدودة وخاصة، وبذلك أخضعت هذه القبائل نفسها تدريجياً لسلطة الدولة المركزية وأصبحت جزءاً منها .

إن هذه المتغيرات الجديدة التي طرأت على واقع القبائل المهاجرة لم تؤد إلى تلاشي القبيلة أو إضعاف تماسكها، ولكنها نجحت إلى حد بعيد في تطويرها وإظهارها إلى الوجود في إطار إسلامي جديد، يحسب للسلطة المركزية حسابها كقوة للربط والتوحيد، وقوة للحسم والفصل .

لقد كان تاريخ البصرة منذ نشأتها على امتداد الجزء الأكبر من القرن الأول الهجري، تاريخاً مليئاً بالتعقيد والعنف والمصاعب الناجمة عن الأزمات والحروب السياسية والقبلية، وكان من أبرز تلك الهجمات والحروب التي شهدتها هذه الحقبة هي : أحداث الفتنة الأولى ومعركة الجمل بعد مقتل سيدنا عثمان رضي الله عنه، ثم حرب صفين، ثم حروب الخوارج وهجماتهم، وحركة

عبد الله بن الزبير، فضلاً عن التكتلات والمشاكل الداخلية بين القبائل . .  
الخ . ولو أخذ البحث تلك الأحداث بمعزل عن التطور العام للمدينة لخرج  
بصورة قاتمة من صور الاضطراب العام والفساد، التي لا تتفق وواقع الحال،  
ولا بد من الأخذ بنظر الاعتبار العناصر الأخرى التي أسهمت في نمو المدينة  
المطرده على الرغم من كل الروادع والظروف المعوقة لتطورها وظهورها كمركز  
حضري، ومن ثم مدينة ذات شأن هام، في ميادين الفكر والأدب والعلوم، فضلاً  
عن دورها في ميدان التجارة والاقتصاد .

إن هذا التطور الحضري بمعناه الواسع اتخذ حالة فريدة مقارنة بنشأة  
القاعدة العسكرية التي كانت غايتها خدمة الأغراض الحربية لجيوش الفتح،  
وبمرور الأيام كانت الجوانب المدنية من حياة البصرة تمتزج بجوانبها العسكرية  
بحيث أصبح من الصعب الفصل بينهما، فقد كان الازدهار المتنامي للحياة  
الحضرية في المدينة - المعسكر، يعتمد بالدرجة الأولى على ما يدخلها من موارد  
ناجمة عن الفتوح الجديدة، وكان غالبية سكانها العرب يستلمون عطاءً منتظماً  
من الدولة، يصرف لهم مقابل استعدادهم الدائم لإمداد الجيوش بالمحاربين  
متى طلب منهم ذلك، وبهذا الأسلوب - بالدرجة الأساس - ضمنت الدولة  
مدداً متصلاً من الجنود المحاربين الذين كانوا يدفعون بالزحف الإسلامي  
خطوات إلى الشرق، في ذات الوقت الذي ضمنت فيه الدولة أيضاً سилоاً متصلاً  
من الموارد المالية التي كانت تسهم في بناء الحياة الحضرية الجديدة النامية،  
وفي بناء اقتصاد متين قائم على النقود، وسد الحاجات المادية الأساسية  
للمجتمع .

إن هذه الثنائية في تكون شخصية البصرة في هذه المرحلة، فرضتها ظروف  
الدولة وسياساتها المتوازنة الدقيقة، بين محاولة الحد من النفوذ القبلي وقوته  
باعتباره يتقاطع وقوة الدولة وسلطانها ومركزيتها، وبين سعيها في الحفاظ على



الهيكل القبلي لأغراض حربية ومالية، إن هذا الواقع الذي يبدو في الظاهر متناقضاً، أضفى على شخصية البصرة طابعها المميز المتسم بالحيوية الدافقة والاستجابة السريعة لدواعي التمدن والتطور والاستقرار، الذي عجلت به عوامل أخرى، كل ذلك هيا البصرة - حتى بعد أن انقطع عن أهلها العطاء في القرن الثاني للهجرة وانتهاء عصر الفتوح - أن تعتمد على نفسها، وتحلق بجناحيها مستفيدة إلى أقصى حد من موقعها الجغرافي المتميز، ومن إمكانيات مواطنيها من مختلف الأجناس والمراتب مستغلة خبراتهم وأموالهم لتنهض بالتجارة، لا لتنفذ نفسها فحسب بل لتزدهر وتتطور، في حين كانت شقيقتها الكوفة في هذه المرحلة تشهد التراجع والانحسار خاصة بعد تأسيس بغداد التي امتصت منها بريقها ورجالها .

وبحلول القرن الثاني للهجرة أصبحت البصرة من الأمصار الإسلامية المعروفة<sup>(٤٧)</sup>، هي عين الدنيا<sup>(٤٨)</sup>، وفرضة البحر ومطرح البر<sup>(٤٩)</sup>، تاجرها أعظم الناس تجارة<sup>(٥٠)</sup>، مدينة الدنيا ومعدن تجارتها وأموالها<sup>(٥١)</sup> تقابل بها الدنيا جميعاً<sup>(٥٢)</sup> وصارت مركزاً إدارياً لجنوب العراق ومناطق الخليج العربي، ومركزاً تجارياً عالمياً تنتهي إليها طرق التجارة البرية والبحرية، ومنفذ العراق على تجارات الشرق من إيران حتى حدود الصين<sup>(٥٣)</sup> .

وقبل أن نعرض لمراحل نموها الديموغرافي وتحولاتها الاجتماعية منذ نشوئها كمعسكر متواضع يضم مجموعات قبلية صغيرة، حتى أضحت مدينة حضرية عظيمة استحققت كل الأوصاف أعلاه، نشير إلى أن هذه التجربة في الاستقرار والتمدن كانت بعيدة كل البعد عن مفهوم الجغرافية الاستعمارية أو نظرية التنمية التخطيطية، كما أنها من جانب آخر لم تكن عقلنة وتنظيماً لهجرة فوضوية، جاءت بأقوام جائعة انقضت على مناطق خضراء غنية، ولم تكن كذلك صورة من صور الاستقرار العفوي المندمج بإطار اقتصادي، أي هجرة

أشخاص أو قبائل من مناطق صحراوية إلى أرض زراعية كما حدث فعلاً في مراحل سابقة قبل ظهور الإسلام، وفي مناسبات عديدة، لقد هاجرت قبائل عربية كثيرة من شبه الجزيرة العربية إلى سواد العراق والجزيرة الفراتية، (قبل الإسلام) ابتداءً من القرن الثالث الميلادي ولكن انتقالها لم يحدث انقلاباً أو أثراً كبيراً في المناطق التي استقروا فيها إن لم يكن الكثير منها قد عاش عيشة مهمشة، إذن فكلمة الاستقرار في تجربة البصرة (وكذلك الكوفة) لا تفي بالغرض، ولا تؤدي إلى المعنى الدقيق في تفسير ما حدث فعلاً، لأنها كانت عملية تمديدية واسعة، جددت في ظروف تاريخية خاصة، هي ظروف الانقلاب الهائل الذي أحدثه الإسلام في حياة العرب، واستجاب العرب لها بنزوع إرادي كامن نحو الحياة الحضرية بكل ما تعني هذه العبارة من معنى<sup>(٥٤)</sup>.

لقد نمت الكثافة السكانية في البصرة بسرعة كبيرة من حوالي ألف مقاتل عند تمصيرها سنة ١٦ للهجرة، إلى حوالي ٣٠٠ ألف ساكن سنة ٥٠ للهجرة<sup>(٥٥)</sup> إلى حوالي نصف مليون نسمة أواخر القرن الأول للهجرة<sup>(٥٦)</sup> وفي العصر العباسي أصبحت بحدود المليون نسمة<sup>(٥٧)</sup>.

ويبدو أنه من الصعب تحديد توقّعات زمنية لمجريات هذا التطور على ضوء الأرقام التي تظهر لنا في المصادر كل عشرين سنة تقريباً، وفي سياق تعرضها للأحداث الكبرى والأزمات السياسية والعسكرية، لأن هذه المصادر في الغالب تذكر أعداد المقاتلين فقط دون إشارات إلى السكان الآخرين من النساء والأطفال والعرب غير المسجلين في الديوان والأجانب وغيرهم، وهؤلاء قد زاد عددهم مع توالي السنين لتوفر فرص العمل والأنشطة الاقتصادية المربحة أكثر من الارتباط بعجلة الحرب. ومما يؤكد ذلك أن البصرة لم تضمر أو تمت بعد توقف حركة الفتوح وانقطاع العطاء عن أهلها في العصر العباسي، بل استمرت في النمو والازدهار بوتائر أسرع طيلة القرنين الثاني والثالث للهجرة.

لقد كان أكثر المهاجرين إلى البصرة من القبائل العربية التي كانت ديارها قريبة من البصرة، وعندما أصبحت هذه الأخيرة القاعدة الرئيسية للجيش الإسلامي المسئولة عن فتوح أقاليم واسعة في المشرق في زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه هاجرت إليها عشائر أخرى كثيرة أهمها عشائر عبد القيس التي كانت تقيم في البحرين<sup>(٥٨)</sup>، وفي زمن خلافة علي رضي الله عنه ذكر أن عدد المقاتلين المسلمين رسمياً في العطاء أصبح ٦٠,٠٠٠ مقاتل<sup>(٥٩)</sup>. وفي زمن زياد (٤٥-٥٣هـ/ ٦٦٥-٦٧٣م) أصبح مجمل سكان البصرة ٢٠٠,٠٠٠ ساكن، ٨٠,٠٠٠ مقاتل مسجل في ديوان العطاء و١٢٠,٠٠٠ من النساء والأطفال<sup>(٦٠)</sup>، وفي ولاية عبد الله بن زياد (٥٥-٦٣هـ/ ٦٧٥-٦٨٣م) أصبح عدد المقاتلين ٩٠,٠٠٠ مقاتل ومعهم ١٤٠,٠٠٠ من النساء والأطفال<sup>(٦١)</sup>، أي ٢٣٠,٠٠٠ في الجملة، وقد ذكر أن أول إحصاء للنفوس في البصرة جرى سنة ١١٦هـ فكان عدد سكان البصرة ٣٠٠,٠٠٠ نسمة<sup>(٦٢)</sup>.

ومع تسارع التطورات والأحداث في حياة المدينة، أخذ مجتمع البصرة يسرع إلى حياة الاستقرار والتمدن، وأخذت تخف مع الزمن الفروق المكانية وتخف الفوارق العصبية بين القبائل، وبعد أن عانى هذا المجتمع من مشكلات معقدة متباينة وتقلب بين وضع وآخر، وتشكل من صورة إلى أخرى، اضطر آخر الأمر إلى الخضوع والاستجابة إلى مستجدات الحياة، خضع لأسباب بعضها سياسي وبعضها اقتصادي، ومرت سنوات قلق مضطربة قبل أن تهدأ البصرة وتستقر ويتكون المجتمع الجديد.

لقد كان هناك صراع مستمر بين عناصر البداوة ممثلة بالقبلية التي كانت تعمل وكأنها كائن سياسي قائم على مبدأ آخر غير مبدأ الدولة<sup>(٦٣)</sup>، وتجد في الحياة الحضرية الجديدة وسلطة الدولة تحدياً لوجودها، وبين عناصر وقوى أخرى غير منظورة كانت تفعل فعلها لإحداث التفاهم والانسجام داخل المصر،

ومع الزمن كان الظفر إلى جانب قوى التحضر والاستقرار، وتقلص نفوذ القوى التقليدية الأخرى، فتضخم عدد السكان مع توسع حركة الفتوح . وتضافرت جملة من العوامل التي فرضتها الاعتبارات الإدارية والعسكرية على إضعاف روح التضامن القبلي وفرضت على العرب تطويع نظمهم البنيوية لظروف الحياة المستقرة في المدينة مما ساعد على تطورها الاجتماعي والاقتصادي .

وقد كانت الإجراءات الإدارية التي أقدم عليها والي زياد في مقدمة تلك العوامل التي أدت إلى صياغة جديدة لمجتمع البصرة المدني، وكانت أهم وأقوى خطوة هي التوزيع الجديد للقبائل على أساس تقسيمات كبرى، فجعل البصرة خمسة أخماس، الأمر الذي ساعد على خلق تكتلات جديدة وإلغاء الكثير من الفروق بينها، فكانت ربطاً بين القبائل وإيذاناً بتغيير نظرتهم إلى الحياة .

كما أن ربط النظام القبلي عامة بالجهاز الإداري للدولة قد أدى إلى تدهور واضح في سلطة القبائل ومراكزها، إن استقرار هذه القبائل في المدينة وخضوعها لسلطة والي الذي لم يكن يستمد سلطانه من علاقة الدم التي تربطه بالآخرين، أضعف من فاعليتها السياسية، وقلل من شأن تلك الرابطة التي كانت تقوم بين أفرادها على أساس صلة الدم والقربى .

إن تعاظم سلطة والي وقوة نفوذه كانت دائماً على حساب سلطة القبائل، فقد دفعت سيطرته على النظام المالي ونفوذه على زعماء القبائل بهذا المجال، دفعت بهؤلاء الزعماء إلى التنافس فيما بينهم ليكسبوا رضاه، ولينالوا بالتالي قدراً أكبر من السلطة على قبائلهم من جراء ذلك، وأدى هذا في نهاية الأمر إلى إضعاف قوتهم الفعلية وتبديد أهميتهم، وأصبح والي مركز القوة الحقيقية التي يدين بها الجميع . من جانب آخر كان نمو المصر قد تطلب إقامة جهاز إداري يتكون من موظفين لإدارته، وكان معظم هؤلاء يعينون في

البداية من غير العرب، ولم تكن لهم بالتالي قبائل تحميهم، فكان ولاؤهم للأمير وحده مما شكل ذلك دعماً مضافاً إلى سلطته .

وكانت الشرطة أداة أخرى اعتمد عليها الوالي لتقوية مركزه، وتشكلت هذه المؤسسة في بدايتها من عناصر غير عربية، مثال ذلك السيابجة الأربعمائة الذين أوكلت إليهم مهام حراسة بيت المال والسجن منذ أيام أبي موسى الأشعري<sup>(٦٤)</sup> . ومن الخطوات التي اتخذها زياد هو أنه استطاع أن يكون من أبناء القبائل حرساً خاصاً به كان يقوم ببعض ما تقوم به الشرطة من مهام، وكان عددهم بحدود ٥٠٠ رجل أسندت قيادتهم إلى كل من شيبان بن عبد الله وعبد الله بن حصن وهما من رجالات البصرة البارزين<sup>(٦٥)</sup> . وأكمل زياد هذه الخطوة بإجراء إداري آخر وهو تقوية سلطة العرفاء الذين كانت تعينهم الدولة ومنحهم صلاحيات واسعة منها توزيع العطاء وتسجيل المواليد والموتى ومراقبة مثيري الفتن، والإبلاغ عن من يفسد النظام، وهم الذين يدعون الجند إلى الجهاد، فضلاً عن مسئولية دفع الديات التي تطلب من أفراد عراقتهم<sup>(٦٦)</sup>، وبهذه الإجراءات أضعف سلطة شيوخ القبائل وحول الأنظار عنهم بعض الشيء وأصبح دور العرفاء كبيراً في مباشرة أعمال المدينة الإدارية وتنفيذ أوامر الوالي، لأنهم كانوا خاضعين مباشرة لسلطته .

وساهم نظام العطاء هو الآخر في إضعاف روح التضامن القبلي حين قصر العطاء على بعض العرب دون الآخرين . فقد استحق العطاء من كان في خدمة الجيش الفعلية دون سواهم، وكان لا مناص من أن تجد الأعداد المتزايدة من المهاجرين الجدد أنفسهم خارج إطار السلطة الفعلية للعشيرة أو الفرع القبلي

المهيكل وفق التنظيم الرتبى للعطاء، لذلك انصرف عدد كبير من سكان البصرة إلى كسب أرزاقهم عن طريق التجارة وما إليها . وكانت طبيعة نشاطهم الاقتصادي والمهن التي امتنعوا تفرض عليهم إقامة علاقات جديدة مبنية على المصالح المشتركة بينهم وبين أناس آخرين لاتربطهم بهم رابطة النسب أو الدم . إن ظهور مثل هذه العلاقات الحضرية دفع الكثيرين من سكان المدينة إلى التخلص من كثير من رواسب حياتهم السابقة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية كان يتولى ديوان العطاء عمال الأمصار (الولاة) وهم الذين يوزعون العطاء على المقاتلين عن طريق قادة الأخماس والعرفاء المعينين من قبل الدولة، ومن خلال طريقة التوزيع هذه كان دور الدولة يتأكد بقوة في المجتمع<sup>(١٧)</sup>، ويتمتعز باستمرار دور جهازها الإداري .

وفي أواخر القرن الأول الهجري وهي المرحلة التي شهدت تقلص حركة الفتوح في المشرق أصبحت حاجة الدولة إلى الإداريين الأكفاء لضبط الأمور في البلاد المفتوحة أكثر منها إلى القادة العسكريين، وكانت المقدرة الإدارية في الغالب أهم في الاعتبار من السند القبلي الذي يتمتع به الشخص، وكانت الفوائد والامتيازات التي تضيفها هذه الوظائف كبيرة على من يشغلها، ولما كانت هذه الوظائف تسند عن طريق الوالي وليس عن طريق العشيرة أو القبيلة، فقد عظم ذلك من شأن الوالي، وأصبح كل من يتطلع إلى منصب من هذه المناصب مثل العامل أو العريف أو القاضي وغيرها، لابد أن يكون على صلة وثيقة بالوالي وبجهازه الإداري، فازداد مع الزمن عدد الرجال البارزين الذين أصبحت مصالحهم الشخصية تزداد ارتباطاً بالدولة من خلال الوالي،

وأصبحت هذه الطبقة الحاكمة أو المتطلعة إلى الحكم تتسع مع الزمن، ويطغى نفوذها على المجتمع القبلي، الذي بدأ ينحسر تأثيره ونفوذه تدريجياً<sup>(٦٨)</sup>.

إن المتغيرات الكبيرة التي طرأت على بنية القبائل وعلاقاتها لم تلغ التنافس فيما بينها، وربما استمرت بعض الخصومات القبلية إلى وقت متأخر<sup>(٦٩)</sup> ولكنها بدأت تفتر وتقل مع تقادم الزمن واستقرار الأمور. ولم يكد أثرها يخف حتى ثار في البصرة - في وقت لاحق، أي في القرن الثاني للهجرة - نوع جديد من الخصومات الاجتماعية، كانت هذه المرة بين هؤلاء العرب وبين ما كانت تزخر به المدينة من عناصر أجنبية مختلفة وخاصة الفرس الذين تسللوا إلى العراق بكثرة وخصوصاً في العصر العباسي، فكانت الخصومة شديدة بين العروبة والنزعة الشعبوية التي ظهرت بقوة على يد هؤلاء، وهي خصومة عميقة تعددت أسلحتها وكثرت ألوانها. وأخذ العرب يشعرون أن انقسامهم إلى قبائل كان مصدر ضعف لهم، ودفع هذا ببعض الكتاب ولاسيما الجاحظ - أديب البصرة المشهور - إلى تأكيد أن العرب أمة واحدة تجمعها روابط الثقافة المشتركة والعادات المتشابهة واللغة الواحدة، وأن الفوارق الناجمة عن اختلاف القبيلة أو الموطن هي فوارق سطحية وضئيلة أمام تلك التحديات، كما تصدى كتاب آخرون كالثعالبي والهمداني وغيرهم إلى تلك النزعات ومجدوا العرب ولغتهم وآثارهم الحضارية<sup>(٧٠)</sup>.

وعلى الرغم من وجود تلك النزاعات والخصومات التي كانت بين القبائل، ورغم شعور القبيلة في المراحل الأولى من الاستقرار بضغط الدولة ونظمها الجديدة على كيائها الداخلي، إلا أن هذه القبائل لم تكن في أي وقت

من الأوقات في حالة عداء مع المدينة وعمرانها، ولم يسجل في تاريخ العرب سواء في شبه الجزيرة العربية أو خارجها أي سلوك تدميري ولأي مدينة كانت، بل كانوا مشيدين ومنظمين رغم تمسكهم ببعض خلفياتهم الثقافية المستمدة من عالم الصحراء<sup>(٧١)</sup> لقد أنشأوا مدينة من العدم وعمروها وأثروا حياتها بكل صنوف الإبداع الحضاري وأضحت البصرة بعد قرن من الزمان نموذجاً لذلك النزوع التمدني الكامن في نفوس العرب . كان أهلها يحاربون في الأقاليم البعيدة، ويتخاصمون فيما بينهم، ويجدون أنفسهم في كل مرة في قلب الحروب الداخلية والأزمات السياسية، وكانوا في ذات الوقت يشيدون مدينة تفوقت في العمران وأبدعت في الفكر والأدب، وتميزت في الدين والسياسة وأخيراً في التجارة والنظم الاقتصادية المتطورة .

د. عبد الحكيم غنتاب الكعبي

قسم التاريخ - كلية الآداب

جامعة التحدي - سرت - ليبيا



## هوامش البحث

- ١ - ناجي، عبد الجبار، دراسات في المدن العربية الإسلامية، البصرة ١٩٨٦م، ص ١٠.
- ٢ - الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبد الرحمن حميدة، دمشق ١٩٧٩م، ص ٢٦.
- ٣ - تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ترجمة بدر الدين القاسم، ط ٢، بيروت ١٩٧٧م، ص ١٣١.
- ٤ - Caetani, L., Annali de l'Islam (Milan, 1905-1926) III, 2 P. 834.
- ٥ - عبارة مأخوذة عن الإنجليزية (Mushrooms-towns) أو من الفرنسية (Villes-champignons) أي مدن تنمو بسرعة خاطفة ومذهلة كنبات الفطر.
- ٦ - موريس لومبارد، مرجع سابق، ص ١٧٦.
- ٧ - جعيط، هشام، الكوفة، نشأة المدينة العربية الإسلامية، ط ٢، بيروت ١٩٩٣م، ص ١٥٤.
- ٨ - المرجع نفسه، ص ٣٢٩.
- ٩ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٠-١٩٦٩م، ج ٤، ص ٧٥.
- ١٠ - البلاذري، أحمد بن يحيى، فتوح البلدان، بيروت ١٩٥٨م، ص ٢٧٤؛ الطبري، ج ٤، ص ٤١-٤٢.
- ١١ - ظهر هذا التشدد في اختيار مواضع الأمصار في المرحلة الإسلامية المبكرة فقط، فهذه الشروط لا نجدها تتكرر ثانية في المراحل اللاحقة بعد أن استقرت عمليات الفتح لأنها لا تتلاءم وظروف الانتصارات التي حققها العرب، إذ انساحت الجيوش في مناطق واسعة وبعيدة جداً عن مركز القيادة.
- ١٢ - هشام جعيط، الكوفة، ص ٦٩.
- ١٣ - ياقوت الحموي، شهاب الدين، معجم البلدان، دار صادر، بيروت (د.ت) ج ١، ص ٦٣٩.
- ١٤ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٣٦-٣٤٥؛ الدينوري، أبو حنيفة أحمد بن داود، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، القاهرة ١٩٦٠م، ص ١١٧.

- ١٥ - نسبت هذه التقسيمات إلى ولاية زياد مع أن مصطلح الخمس والأخماس باعتبارها وحدات تنظيمية عسكرية وجبائية ظهرت لأول مرة قبل واقعة صفين (سنة ٣٧هـ)، ينظر : الطبري، ج ٥، ص ٤٢٦ .
- ١٦ - ماسنيون، لويس، خطط البصرة وبغداد، ترجمة إبراهيم السامرائي، بيروت ١٩٨١م، ص ١٦-١٧ ؛ صالح أحمد العلي، خطط البصرة ومنطقتها، بغداد ١٩٦٦م، ص ٨١ .
- ١٧ - الطبري، ج ٥، ص ٢٣٧ ؛ ماسنيون، ص ١٨ .
- ١٨ - ماسنيون، خطط البصرة، ص ١٨ .
- ١٩ - الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، الحيوان، القاهرة ١٩٤٥م، ج ٢، ص ٣٣٣ ؛ ماسنيون، خطط، ص ١٩ .
- ٢٠ - صالح العلي، خطط، ص ٨٧ .
- ٢١ - ماسنيون، خطط، ص ٢٣ .
- ٢٢ - لأن أراضي البصرة عشرية يحق للمسلمين امتلاكها واستثمارها . الإصطخري، أبو إسحق إبراهيم، المسالك والممالك، ليدن بريل ١٩٢٧م، ص ٨٠ .
- ٢٣ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٥١ .
- ٢٤ - ابن عبد ربه، أبو عمر شهاب الدين ، العقد الفريد، تحقيق أحمد أمين وجماعته، القاهرة ١٩٤٨، ط ج ٢، ص ٢٦٠ .
- ٢٥ - عون الشريف قاسم، شعر البصرة في العصر الأموي، الخرطوم ١٩٩١م، ص ٥٣ .
- ٢٦ - شارل بيلا، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، ترجمة إبراهيم السامرائي، دار الفكر، دمشق ١٩٨٥م، ص ٦٩ .
- ٢٧ - أنظر حول هذا الموضوع : صالح العلي، التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الأول الهجري، ط ٢، بيروت ١٩٦٩م، ص ٧٧ وما بعدها .
- ٢٨ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٧٣ .
- ٢٩ - أنظر شارل بيلا، المرجع السابق، ص ٧١ .
- ٣٠ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٧٤ .
- ٣١ - المصدر نفسه، ص ٣٧٦ .
- ٣٢ - صالح العلي، التنظيمات، ص ٨٥ .
- ٣٣ - أغلاط اللغويين الأقدمين، ص ١٦٢-١٦٣ .
- ٣٤ - شارل بيلا، المرجع السابق، ص ٧٨ .

- ٣٥ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٧٤-٣٧٥ .
- ٣٦ - المصدر نفسه، ص ٣٧٤ ؛ صالح العلي، التنظيمات، ص ٨٥-٨٦ ؛ شارل بيلا، المرجع السابق، ص ٧٤ .
- ٣٧ - البلاذري، ص ٣٧٥ .
- ٣٨ - الطبري، ج ٩، ص ١٠ .
- ٣٩ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٧١ .
- ٤٠ - البلاذري، فتوح البلدان، ص ٣٧٦-٤١١ .
- ٤١ - ابن الفقيه الهمداني، أبو بكر أحمد بن محمد، مختصر كتاب البلدان، ليدن ١٩٦٧م، ص ١٩١ .
- ٤٢ - شارل بيلا، المرجع السابق، ص ٧٢ .
- ٤٣ - لومبارد، الجغرافية التاريخية ص ٢٦٥ .
- ٤٤ - ينظر : Popovic, Alexandre, La Revolte des esclaves en Iraq, au 111 e/IX siècle (Paris 1976) P.P. 83-123.
- ٤٥ - جعيط، هشام، الفتنة، جدلية الدين والسياسة في الإسلام المبكر، ترجمة خليل أحمد خليل، بيروت ١٩٩٢م، ص ٤٩-٥٠ .
- ٤٦ - الجاحظ، البيان والتبيين، بيروت ١٩٦٨م، ج ٢، ص ٢٣٣ .
- ٤٧ - المرزوقي، أبو علي الأصفهاني، الأزمنة والأمكنة، حيدر آباد الدكن ١٩١٣م، ج ١، ص ٨ .
- ٤٨ - الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة ١٩٦٥م، ص ١٦٢ .
- ٤٩ - المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦م، ص ١٢٨ .
- ٥٠ - ابن قتيبة، عيون الأخبار، القاهرة ١٩٦٣م، ج ١، ص ٢١٦ .
- ٥١ - اليعقوبي، البلدان، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٧م، ص ٨٠ .
- ٥٢ - المقدسي ص ١١٣ .
- ٥٣ - المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٥٨م، ج ١، ص ١٤٠ .
- ٥٤ - ينظر : هشام جعيط، الكوفة، ص ٧٦-٧٧ .

- ٥٥ - صالح العلي، خطط البصرة، مجلة سومر ١٩٥٢، ص ٧٢ .
- ٥٦ - صالح العلي، خطط البصرة ومنطقتها، مرجع سابق، ص ٤٨ .
- ٥٧ - الحسيني، عبد الرزاق، العراق قديماً وحديثاً، بيروت ١٩٧١م، ص ١٧٥ .
- ٥٨ - صالح العلي، خطط البصرة، ص ٤٧ .
- ٥٩ - الطبري، ج ٥، ص ٧٩ .
- ٦٠ - البلاذري، فتوح، ص ٣٤٤ .
- ٦١ - الطبري، ج ٥، ص ٤٣٣ .
- ٦٢ - Shaban (M.A.), Islamic History, Cambridge, 1971, P. 65.
- ٦٣ - هشام جعيط، الكوفة ص ١٩٢ .
- ٦٤ - الطبري ج ٤، ص ٤٨٥، البلاذري، فتوح، ص ٣٧٦ .
- ٦٥ - الطبري، ج ٥، ص ٢٢٣ .
- ٦٦ - نفسه، ج ٥، ص ٧٩، ص ٣٥٩ .
- ٦٧ - هشام جعيط، الفتنة، ص ٥١ .
- ٦٨ - عون قاسم، المرجع السابق، ص ٣٥-٤٠ .
- ٦٩ - ينقل الأستاذ عبد العزيز الدوري عن الذهبي خبراً عن خصومة قبلية في البصرة بين قبائل من ربيعة وأخرى مضرية دامت مائة وعشرين سنة، حتى أصلح بينهما عضد الدولة سنة ٣٦٦هـ، تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، بيروت ١٩٧٤م، ص ٢٨ .
- ٧٠ - عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق الاقتصادي، ص ٣٠-٣١ .
- ٧١ - هشام جعيط، الكوفة، ص ١٩٣ .